القصة القصيرة والانزياح

في ابسط مفهو للقصة القصيرة هي سرد قصصي قصير نسبيًا (قد يقل عن عشرة آلاف كلمة) يهدف إلى إحداث تأثير مفرد مهيمن ويمتلك عناصر الدراما. وفي أغلب الأحوال تركز القصة القصيرة على شخصية واحدة في موقف واحد في لحظة واحدة. وحتى إذا لم تتحقق هذه الشروط فلا بد أن تكون الوحدة هي المبدأ الموجه لها. والكثير من القصص القصيرة يتكون من شخصية (أو مجموعة من الشخصيات) تقدم في مواجهة خلفية أو وضع، وتنغمس خلال الفعل الذهني أو الفيزيائي في موقف. وهذا الصراع الدرامي أي اصطدام قوى متضادة ماثل في قلب الكثير من القصص القصيرة الممتازة. فالتوتر من العناصر البنائية للقصة القصيرة كما أن تكامل الانطباع من سمات تلقيها بالإضافة إلى أنها كثيرًا ما تعبر عن صوت منفرد لواحد من جماعة مغمورة.

وفي مجموعته القصصية يؤكد القاص نبيل اسكندراني على الواقع بطريقة فيها من الانزياحات الكثير وهي تعبير صادق على جدية

الاسكندراني تجاوز السرد المباشر للوقائع وتقنيعها بالمخيال الذي يتطلب من المتلقي المزيد من الذكاء، نعم هناك شيفرات تسنوجب التوقف عندها يقول القاص:

«الدرب إلى المستحيل طويل، يعلم الربان ذلك، ولكن ذلك لا يثنيه عن الغوص في أعماقه، وأعماق نفسه ...» ص17.

المستحيل هو الاشكالية التي تقصدها القاص والتي تشير الى غير المدرك في حقيقته وهو الماوراء الذي يتطلب عزيمة واصرار على الاستمرار رغم انه تجاه «مستحيل» وعملية الغوص تمثل الكشف عن خفايا ذلك المستحيل الذي اتخذ تسمية مجازية عن الصعوبات والأخطار المحيطة به.

ولا أتصور أن القاص يستهدف السير على منوال القصة القديمة التي اعتمدت الخبر المفضي لحقيقة ما، بل ذهب الى المغايرة في الابتعاد عن المباشرة والتقريرية، اذا ما عرفنا أن القصة القصيرة قد وجدت طوال التاريخ بأشكال مختلفة؛ مثل قصص العهد القديم عن الملك داوود، وسيدنا يوسف وراعوث، وكانت الأحدوثة وقصص القدوة الأخلاقية في زعمهم هي أشكال العصر الوسيط للقصة القصيرة.

ولكن الكثير من الباحثين يعتبرون أن المسألة أكبر من أشكال مختلفة للقصة القصيرة، فذلك الجنس الأدبي يفترض تحرر الفرد

العادي من ربقة التبعيات القديمة وظهوره كذات فردية مستقلة تعي حرياتها الباطنة في الشعور والتفكير، ولها خصائصها المميزة لفرديتها على العكس من الأنماط النموذجية الجاهزة التي لعبت دور البطولة في السرد القصصي القديم.

يقول القاص:

«لا يدرك البحر الذي قد أنصت لألف ألف عاشق، والذي التفت عند شواطئه جحافل المتألمين عبر العصور «ص21.

ها هو يخرج من الجملة الخبرية إلى الوصف والتشبيه بجمل تعبيرية قادرة على الامتزاج مع الحدث السردي ومكملة له، ويذكرنا الاسكندراني في منهجه القصصي بـ (إدجار ألن بو) وهو من رواد القصة القصيرة الحديثة في الغرب . كذلك يوسف إدريس في مصر، وزكريا تامر في سوريا، ومحمد المر في دولة الإمارات. هؤلاء جميعا اشتغلوا على تحريك الحدث القصصي من خلال الخروج عن التسلسل والتراتبية .

نبيل اسكندراني يقدم القصة القصيرة برؤيته الخاصة ولا بد من التنبيه هنا من أن اننا في زمن القصة القصيرة بإطلاق لا يحتاج إلى تدقيق وتمحيص الملاحظ والسائد أن الساحة الادبية العربية تتجه نحو السرد بحكم المتغيرات التي طرأت على التفكير العربي في ظلّ

العولمة الثقافية، لكن تركيزالصحافة على القصة القصيرة لا يعني بالضرورة أنها الأهم في أشكال الإبداع الأدبي، وإنما يعود هذا التركيز ونحن لا نشك في خصوبة القصة القصيرة وقدرتها على استيعاب عالم التجربة الإنسانية وتعقيداتها، بل إنها استطاعت أن تفرض الاعتراف بها كجنس أدبي متكامل له خصوصيته خاصة في العقدين الاخيرين، وهذا المتغير فرض على القاص ان يكون على وعي تام بما يدور حوله ويمزج بين واقعه وخياله ليرسم لنا لوحة تفوق الواقع وتبتعد عن التعمية في متاهات لا طائل منها.

يؤكد القاص امكانيته في المزاوجة بين الواقع والمخيلة إذ يقول:

«اليوم هو العاشر من شهر القمر، والربان يزداد شكا بازدياد معرفته، هكذا هي الحقيقة، كلما اقترب المرء منها ازداد شكاً بها، أوليس الطريق الى المعرفة يبدأ بالشك بكل ما هو حولك؟ص49.

اشتغل القاص على المزج ما بين العقلاني واللاعقلاني، وبين الواقعي والوهمي المتخيل، فيظهر الحدث المركزي كأنه شيء واقعي قطعا، لأن لغة القصة اتسمت بالشعرية في بعض مفاصلها وبالفلسفة في مواضع، فما كان الحدث إلا واقعيا ومتخيلا، لكنه داخل فضاء النص، يُقدّم على أنه واقعي مادام القارئ ولج عالم النص، وهنا تظهر الغرابة التي تدهش النفس. وهنا يتلذذ القارئ بالحالتين معا ويتخلص

من دوامة الحيرة، بحيث يتصور أن العنصر الغرائبي في القصة هو جزء لا يتجزأ من واقع الشخصيات وهذا ما يبدو واضحا في سياق الجمل المذكورة «كلما اقترب منها ازداد شكا». وهذا نوع من الإيهام الذي تبحث عنه القصة القصيرة لتحقيق الجمال الفني الإبداعي، وهو أيضا أحد المدهشات التي تغري القارئ في الارتباط عاطفيا بالنص.

وعن الاختلاط الاجناسي بين قصص الاسكندراني اتذكر قول الروائي وكاتب القصة القصيرة المشهور مانويل كومروف بأنه حين يجد نثره أخذ بشكل ما إيقاع الشعر، فإنه يتوقف فوراً، فليست مهمة النثر أن يكون شعراً. يقودنا هذا القول إلى ظاهرة اختلاط التجربة الشعرية بالتجربة القصصية، وتحول بعض القصص التعبيرية إلى حالة شبه شعرية، ففقدت إقناعها على الصعيدين القصصي والشعري، يقول الاسكندراني:

«الليلة ينتظر الشاعر زائر الليل، تراوده بعض الافكار عن العودة الى القرية، ليلتقي صاحبة العينين الآسرتين» ص96.

ما من ظاهرة إلا ولها أسبابها، لكن هذا النزوع باتجاه ما يمكن تسميته الشعر المنثور، يمكن رده إلى بروز العنصر الذاتي أو الأوتوبيوغرافي في القصة عند الاسكندراني بما هي فيض نفسي تلقائي، أو تعبير صاف عن النفس، يقتضي تكثيفاً شديداً، أو هو الاختصار حسب فرويد، بمعنى النزوع باتجاه الطابع الإيجازي للمضمون الظاهر للحلم، في

مقابل غنى مضمونه المستتر، ويكون من السهل بمكان أثناء قراءة هذا النوع من القصص المطابقة بين شخصية المؤلف أو البطل، أما الحكم على هذه الحالات الكثيرة التي تقع بين الشعر والقصة، فيكون على النحو التالي:» إذا استعملت التعبير الشعري لخدمة القصة فذلك جيد، وإذا وظفت التعبير الشعري من أجل التعبير الشعري، فذلك ليس بشعر، والشعر ليس بقصة، وهذا مكمن الخطر في محاولة المزج الاعتباطي بين الجنسين .

وحين يفرض الغموض نفسه في القصة القصيرة ويتحول النص إلى رموز مشهدية غامضة كما في الشعر الحديث، فإن التعامل معه يغدو مغامرة؛ فالقارئ يحاول أن يحلل الصور الشعرية بهدف لملمة ما تفرق من أجزاء، وعليه في الوقت نفسه أن يميز بين كلام عادي وآخر ذي دلالات عميقة، فيكون أمام نمط كتابي منفتح على صيغ تعبيرية متناسلة مليئة بالرؤى والاحتمالات، بعضها لا يكتب له النجاح، والبعض الآخر يثير فضول القارئ ويدفعه إلى القراءة أكثر من مرة، كما هو الحال في نصوص الاسكندراني الذي سلك هذا المسلك الفني في عدد من قصصه، إذ مزج جمالياً بين القصة والشعر، في تشبيهات ذكية، باستخدام واع للرموز، وغدت بعض نصوصه القصصية قريبة من الشعر المنثور لكن ليس بقصدية، كما جاء في الصفحات 94 الى

103 من المجموعة المذكورة والتي تدور احداثها حول تجربة الشاعر ينعدم فيها الحوار، ليعلو بدلاً عنه إيقاع متكرر، يحول النص إلى قصيدة تتهاوى على أنغام سمفونية موسيقية.

ويبدي كثير من النقاد تخوفهم من خلط القصة القصيرة كفن أدبي مستقل بالخواطر والكتابة الساخرة واليوميات والشعر، وهو خوف ساهم في تصعيده شيوع ظاهرة تعدد الاجناس في القصة، وهي ظاهرة قد تنجح وربما تنقلب سلبا، ان التجريب في القصة القصيرة أدى إلى ازدهار كمي تأخر عنه ولم يقابله ازدهار نوعي. فنحن نشهد تدفقاً شديداً للأقلام الناشئة والجديدة على كتابة القصة القصيرة، وكل من يتابعها ويتأملها كما ينبغي، يحس أننا بحاجة إلى مناخ نقدي تصنعه أبحاث جادة موضوعية قادرة على فرز الجيد من الرديء؛ فالعملة الرديئة تطرد العملة الجيدة في سوق الأدب. كذلك تساهم في بلورة حساسية أدبية أكثر معاصرة للتصدي لظاهرة انتشار الكتابة الرديئة.

وعلى اية حال فان تجربة الاسكندراني في هذه المجموعة قد كانت واعية وذكية وتمكن من المتلقي بما لديه من قدرة على التوليد المتتابع للحدث القصصي، وأتصور أن المستقبل سيكون مفتوحا امام هذه التجربة لتصبح اكثر نضجا.